المقدمة

تعد الصحراء العربية من الصحارى العالمية المقفرة المجدبة التي لا تحتفظ إلا بأنواع معينة من النباتات والحيوانات التي تكيفت مع ندرة المياه وجفاف الأجواء، حيث تشتد الحرارة صيفاً، ويبرد الطقس شتاءً مع قلة نزول الأمطار؛ وبها نباتات ربيعية سرعان ما تذبل وتموت. وهناك واحات منتشرة في وسط الصحراء وعلى أطرافها، إلى جانب القرى والأرياف في المناطق البعيدة عن جوف الصحراء ومحيطها العام.

وإذا ألقينا نظرة على الحيوان المفترس في الصحراء، نجد أن النوع المسيطر في كل أجزائها هو: الذئب؛ فلا الأُسود من الحيوانات الصحراوية، ولا الضباع هي المنتشرة فيها؛ أما الثعالب والقطط البرية، فهي حيوانات صغيرة لا تقاس بحجم الذئاب، حتى إنهم لا يعدونها حيواناً مفترساً. بل إن الضباع نفسها التي قد تكبر الذئاب جسماً، لاتعد من الحيوانات المفترسة في مقابل النمور والفهود مثلاً؛ لأنها تعتمد في قوتها على الجيف، حتى إن دورها يكاد يقتصر على تنظيف البيئة وكنسها.

وليس لدينا تحديد لأنواع الذئاب في الجزيرة العربية، فالمعجم اللغوي يعطي أسماء وصفات متفاوتة للألوان والأحجام، في حين أن الأدب يقدم نموذجاً مثالياً للذئب.

وعلى كل حال، فالذئب العربي متناسق الجسم صغير الحجم، حادّ الذكاء، دائم الجوع، صبور، يكتسب قوته بالقوة والحيلة، والصداقة حيناً، والاختتال حيناً آخر، ولكنه في جميع الحالات يعتمد على قدراته الذاتية في الوصول إلى زرائب الماشية

والأغنام، فهي التي لايتردد أبداً في افتراسها، ولذلك كانت الخصومة بينه وبين الرعاة، وأصحاب الأغنام شديدة وعنيفة، فليس هناك بُدّ من مطاردة الذئاب وقتلها، والاستعداد لها. وقد تحولت هذه الخصومة مع الماشية والأغنام إلى عداوة بين الإنسان والذئب، وولّدت هذه الخصومة القصص والأساطير، وانقلب الذئب من حيوان يبحث عن صيد في نطاق حيوانيته، أي: الأغنام والماشية والطيور الداجنة...إلخ، إلى إنسان يقاتل الإنسان، ومن حقيقة إلى خيال، فكان هو والغول سواء، وتولّت الأشعار دور المادة القصصية، فحيكت القصائد، وتغنى الشعراء، وكان الذئب رمز الإنسان في الصحراء.

وعندما جمع العرب مادة اللغة، كان ضمن جمعهم كل ما يتعلق بالذئب، بيد أن شخصيته الشعبية كانت هي الواضحة الملامح، في حين كان الأسد حيواناً أرستقراطياً حتى في الشعر. وبدت مكانة الذئب الشعبي تبرز شيئاً فشيئاً، فوجدنا إشارات ضئيلة إلى معتقدات العرب فيه في الجاهلية، وتسلّلت بعض هذه المعتقدات إلى العرب تدريجياً ومع تقدم الأزمان. كما أخذت تلك المادة الشعبية تلعب دورها في عقلية الشعب، فكان الذئب جزءاً من العلاج الوهمي للإنسان.

وبهذا اكتملت جوانب صورة الذئب العربي لتتوافق كلياً مع كل الصور المرسومة عنه عند الشعوب التي عاش فيها الذئب عالمياً.

غير أن هذه الصورة الكلية لم تلبث أن اهتزت أمام تحديات العلم ومجالات التجريب، فأخذت كثير من المعلومات المشوهة عن الذئب توضع على المحك والنقد، وتقدمت علوم دراسة الحيوان، فراحت تتحقق من كل صغيرة وكبيرة في المدونات القديمة عن الذئب، وكان هناك تصنيفات لهذه المدوَّنات، فبعضها صُنف في جانب علم الموروثات الشعبية، وبعضها صُنف ضمن التاريخ والأدب، وبعضها كان من نصيب العلم التجريبي والتطبيقي.

وتفتقر المكتبة العربية حتى الآن إلى دراسات من هذا القبيل، فليس هناك دراسة

متخصصة في الضبع، ولا الأسد، ولا الزواحف كالضب، أو الطيور كالعقبان والنسور. ولو وُجدت دراسة، لما تعدت النطاق التصنيفي ممّا يدور في ما يُعرف بدراسة الطبيعة في الشعر العربي، حيث تُحشد الأشعار في جانب، نجده مكرراً في كتب كثيرة من هذا النوع. ولعل أوضح شاهد على هذا المنهج تلك الكتب المصنفة حتى الآن في الخَيل، وربما أضيف إليها الإبل.

وإذن، لابد من نَقْلة نوعية في طريقة البحث تفتح آفاقاً جديدة، وتعد سابقة تحتذى. صحيح أن المجال التجريبي في البلدان العربية ما يزال محدوداً وقاصراً، ولكن أبواب البحث مشرعة، ونتائج العلوم واحدة وتقريبية، يمكن الاعتماد عليها، وتبنّي وجهات نظرها، حتى يتحقق لنا ذات يوم محميات خاصة، وعلماء ثقات مخلصون، يعملون مثلما عمل غيرهم، فنكون قد أوصلنا حلقات الحاضر بالماضي، وبرزنا ثانية في مجال الريادة والسيادة.

ومن هذا المنطلق العسير والشائك كان هذا الكتاب الذي حاول أن يُغلق الدوائر كلها حول الذئب، فيجيء كتاباً جامعاً، أي: للموروث الأدبي والشعبي ومدى مصداقيته مع النتائج العلمية الحديثة، وفق استبصار عميق لطبيعة الذئب العربي في جزيرة العرب والحقائق المتاحة حتى الآن عن الذئاب عامة.

ولم يتأتَّ ذلك إلا بعد قراءات متواصلة عن الذئب في اللغات الأجنبية، لم تكن كل مراجعها متوافرة إلا بعد شدّ الرحال إليها، والبحث عنها، ليس في النواحي العلمية فحسب، بل في آداب الشعوب الأخرى، ثم هذا الجمع للمادة الأدبية شعرية ونثرية وإخبارية، ليظهر الكتاب عملاً يضم نتائج حوتها تلك المؤلفات عن الذئب في شتى المجالات .

ولم يكن الأمر قاصراً على الكتب الأجنبية، بل إن مؤلفات باللغة العربية كانت صعبة المنال لولا الإلحاح في طلبها والجدّ في العثور عليها في مواطنها.

لقد اهتم العلماء بالذئب، فجاءت الكتب العلمية فيه متفرقة، بعضها اختصّ بالتراث الشعبي والأسطوري، وبعضها حكى قصصاً عنه، وتشتت المعارف العلمية في تكوينه وعلاقته بالمجتمعات البشرية قديمة وحديثة، وركزت معظمها على طبيعة الذئب وسلوكه. وجاء هذا الكتاب ليستخلص كل ذلك، ويعرض ما في الأدب العربي عليه، فكان كتاباً جامعاً، مفصلاً، يتناول أبسط الجزئيات هنا وهناك، فيربطها جميعاً، لنقرأ كتاباً واحداً شاملاً عن الذئب وفق ما توصَّلت إليه الخبرة الإنسانية، ووفق ما جاء به أدب العرب على مَرِّ التاريخ.

obeikandl.com

تمهيد

لن ندخل في تفصيلات حول أسماء الذئب وكُناه، وصفاته، فقد اشتملت الدراسة التي نُشرت في مجلة كلية الآداب جامعة الملك سعود على ذلك.

ولن نخوض في اشتقاقات الاسم: "الذئب"، ومترادفاته، فهي أيضاً مما عرضت له تلك الدراسة.

ومما يلفت النظر هو إحدى تلك الصفات: الورقاء والأورق.

وكلاهما يعني: الذي يضرب لونه إلى الخضرة، أي: السواد.

وفي اللغة الفارسية نجد كلمة: كَركَ.

التي تلفظ: وركَ.

وهي تعني: الذئب في لغة الفرس: الهندوأوروبية.

واللغة الفارسية إحدى اللغات الهندوأوروبية التي تشترك في كثير من المفردات المعجمية مع بعضها.

وهكذا تحولت: وركَ.

في اللغة الألمانية القديمة إلى:

فاركَ	Warg
فاراكَ	Warag
فيركَ	Wearg

فيره Wearh

وصارت حديثاً:

فولف Wolf

وهي في الإنجليزية :

وولف Wolf

فإذا عدنا إلى نطق الكلمة الأولى في اللغة العربية، وجدناها: ورق.

أو أصلها: أورق – ورقاء.

ومن هنا، فلعل أن أصل الكلمة الأعجمية التي تطلق على الذئب هي هذه الصفة العربية. وقد لاحظ القوم في لون الذئب: الخضرة، أو بمعنى آخر: الطلسة، والذئب الأطلس، هو أشهر أنواع الذئاب على الإطلاق عربياً وعالمياً apale colour: Yellowish – grey / brown/ grey [1].

وتوجد في إيران عدة قرى تحمل اسم الذئب كَرِكَ.

ولعل مدينة الوركاء في العراق، أصلها: الورقاء، نسبة إلى الذئب.

أما ما يلفت الانتباه مرة أخرى، فهو المسمى:

الشاكال (شغال، بالفارسية): ابن آوى.

وواضح من تركيب الاسم أنه عربي الأصل جاء من : الشكل.

ولا يقتصر تأثير اللغة العربية في عالم الحيوان، على هذا، بل نجد في الإنجليزية: The Prairie Wolf .

أي: ذئب البراري، والبراري، كلمة عربية. ولكن الغريب في الأمر أن هذا الذئب لا يعيش في جزيرة العرب، بل في شمال أمريكا، حيث الثلوج والمرتفعات،

---

(١) Cristian Gross, Mammals of Southern Gulf (Dubai: Emirates Printing Press 1987) pp.42-43. Harrington, F.H. & P.C.,Paquet Wolves of the world (Noyes: Noyes Publication, 1984) pp, 178-181.

وانظر، جمال الدين، أبو الفضل، محمد بن جلال الدين بن مكرم بن منظور، لسان العرب (بيروت: دار صادر، د– ت) "طلس".

فهل وجد هذا الذئب يوماً في بلاد العرب؟

ومما يتعلق بأصول الكلمات، تسمية الذئب بـ: الدَّألان أو الدَّرَوان أو دُؤالة أو دُؤال (الذي يقال : إنه ترخيم : ذؤالة).

إذ المعروف أن الكلب الوحشي يسمى Dhole، وهذا يعني أنه ربما كان موجوداً في جزيرة العرب، قبل أن ينقرض ويصبح من حيوانات شرق آسيا، وكان في الأصل يُنطق بالذال، ثم تَصحّف إلى (دال)، وقد عدّه العرب من أسماء الذئب.

وحيث إنه ليس لدينا معلومات كافية عن الذئب الأسود The Black Wolf، الذي لا نجد له ذكراً في المصادر القديمة، أو المراجع الحديثة، مع أنه موجود في بعض أنحاء من العالم، فإن الاعتقاد بوجوده أمر ممكن، طالما أنه اقترن بالدعاء على الخصوم بـ"الأسود" : أي الذئب الأسود ؛ ونحن نعلم أن صفات مثل: سرحان، مشتقة من السَّرْح ؛ والأطلس، مشتقة من الطلسة... وهلم جرّا، ثم إن الصفة "سِيد" مشتقة من "السَّوَاد"، وهي الصفة الشهيرة جداً من بين صفاته في الشعر العربي القديم خاصة، ويدل هذا على أن الذئب الأسود كان هو الغالب في الجزيرة العربية، ثم انقرض منذ آماد بعيدة.

وإذا كان الأورق والورقاء تدلان على الذئب، فإن: Aard Wolf .

هو: ابن الأرض، أي الذئب، أيضاً.

وهكذا، فإن تسمية اللص في اللغة الألمانية، Dieb .

هو: الذئب ؛ لأن صعاليك العرب، هم ذؤبانهم، وما زالت بعض الأسماء في اللهجات العربية المعاصرة تنطق: دِيب، أو أبو دِيب، بدلاً من تخفيف الهمزة : ذِيب .

وبالتأكيد، فإن اشتمال اللغة العربية على عدد كبير جداً من الأسماء والصفات عن الذئب يعني أن لدينا مخزوناً كبيراً من الألفاظ التي تعود إلى عصور مغرقة في القدم، وأنها ربما استعارتها من أخواتها السّاميّات، كما نلاحظ من وجود بعضها في اللغة اليمنية، مما أشار إليه العلماء في مواضعه.

بل إننا لو تمكنا من التدقيق أكثر، لوجدنا بعض هذه الألفاظ في عدد آخر من اللغات العالمية، مع تحريف قل أو كثر، فمثلاً: في الأسبانية hepos، في الفرنسية heloup، قد تعود إلى: اللبوأة، وهي من أسماء أنثى الأسد، ولأنها في اللغات اللاتينية تعني: الذئب.

ولمجرد الفذلكة اللغوية، ألا يحتمل أن يكون مسمى الأسود نفسه، مصدره اللغة العربية، أي: أبلق، والأبلق: الأسود Black !!

obeikandl.com